

في أعقاب معركة صفد ١٩٤٨

محمد هشام العظم

نشرت شؤون فلسطينية ، في أعدادها السابقة ، أكثر من مقالة حول معارك القسم الشمالي من فلسطين في العام ١٩٤٨ . واذ ننشر فيها يلي مقالة أخرى ، ندعو العسكريين العرب الذين خاضوا المعارك وقادوها في مناطق أخرى من فلسطين أن يكتبوا لنا حتى يتم تسجيل تاريخ حرب ١٩٤٨ في عموم فلسطين ولا ينحصر في قطاع واحد .

شهد النصف الأول من أيار عام ١٩٤٨ أحداثاً متلاحقة عنيفة . وكلما اقترب موعد الجلاء كما أعلنه الإنكليز ، وهو الخامس عشر من أيار ، اشتدت المعارك وتقاتلت الأحداث العنيفة . ولقد تميز النشاط العسكري في مسرح عمليات الجليل بميزات رئيسية ثلاث خلال تلك الفترة : الأولى : سقوط المدن العربية الواحدة تلو الأخرى حتى كان آخرها صفد ، الثانية التسابق الاستراتيجي في احتلال المواقع الهامة ما بين الفريقين ، أو التمسك بها والدفاع عنها بانتظار تدخل الجيوش العربية المرتقب ، الثالثة : انشغال العدو بتدعيم مكنتسياته العسكرية وحماية خطوط مواصلاته ، وعدم توسعه في الاحتلال أو تورطه في المطاردة ، إلا ما كان ضروريا لسد ثغرة أو احتلال موقع (كما حدث في المالكية فيما بعد) .

ومن المؤسف حقا أن يكون السبق الاستراتيجي خلال هذه الفترة لمصلحة العدو ، تحت ضغط عوامل ثلاثة كان العرب يرزحون تحت تأثيرها .

الأول : الاعتماد على جيش الإنقاذ في المهام الدفاعية الكبرى ، وهو جيش من المتطوعين المدنيين في غالبيته ، وينقصه السلاح والخبرة والتدريب ، وقد شكل بالاساس للقيام بمهام محدودة . فلما تطورت الأحداث ، وواجهته المهام التي تتطلب التطور التلقائي حسب الضرورة بالسلاح والتنظيم لم يحدث له شيء من ذلك ، وغدت الاداة غير متناسبة مع المهمة .

الثاني : ضعف المقاومة الفلسطينية : فلم تكن تلك المقاومة على مستوى الأحداث في البدء ، ولم تكن ملائمة لطبيعة المعركة في النهاية .

الثالث : التمسك الجامد بالقانون الدولي : فقد أدى هذا التمسك الاعمى الى ضياع العديد من المدن والمواقع العربية ، ومنع الجيوش العربية المجاورة من انقاذها في الوقت المناسب ، على الرغم من أن الإنكليز قد أخذوا الحدود المجاورة في بدء عملية الانسحاب حتى تركوا تدريجيا في الموانئ البحرية . وهكذا أدى التمسك الاعمى بالقانون والاعراف الدولية الى سقوط العديد من المدن والى التضحية بميزات استراتيجية هامة كانت تستطيع قلب الموقف في بعض المناطق أو تأخير الكارثة والحد من حجمها في بعضها الآخر .